﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

قال قيس : فوالله ما رد على عمرو بن عبيد ما قلت . ومعنى ذلك موافقة عمرو بن عبيد .

ماذا تفيد هذه ؟ . تفيد ألا نأخذ كلمة « خالدين فيها » بمعنى التأبيد الذى لا نهاية له ، لأن الله قد استثنى من الخلود فى آية أخرى .

والحق سبحانه وتعالى بعد أن شرح حكم القتل العمد والقتل الخطأ ، بحث العلماء ووجدوا أن هناك قتلاً اسمه « شبه العمد » أى أنه لا عمد ولا خطأ ، كأن يأتى إنسان إنساناً آخر ويضربه بآلة لا تقتل عادة فيموت مقتولاً ، وهنا يكون العمد موجوداً ، فالضارب يضرب ، ويمسك بآلة ويضرب بها ، وصادف أن تقتل الآلة التى لا تقتل غالبا ، وقال العلماء : القتل معه لا به ، فلا قصاص ، ولكن فيه دية .

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يوضح : بعد ما حدث وحدثتكم عن القتل بكل صوره وألوانه سواء أكان القتل مباحا كقتل المسلمين الكافرين فى الحرب بينهما ، أم القتل العمد ، أم القتل الخطأ ، أم القتل شبه العمد ، لذلك ينبهنا : يجب أن تحتاطوا فى هذه المسألة احتياطاً لتتبينوا أين تقع سيوفكم من رقاب إخوانكم ، فيقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ

كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

فيأيها المؤمنون حين تضربون فى سبيل الله فتبينوا وتثبتوا فلا تعمل سيوفكم أو رماحكم أو سهامكم إلا بعد أن تتثبتوا : « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيراً » .

إذن فهذه آية تجمع بين كل المعانى ، ففيها الحكم وحيثيته والمراد منه ، وسبحانه يبدأها بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » ، والخطاب الإيمانى حيثية الالتزام بالحكم ، فلم يقل : « يا أيها الناس إذا ضربتم فتبينوا » ، ولكنه قال : « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا » فهو يطلب المؤمنين به بحكم لأنهم آمنوا به إلهاً ، وماداموا قد آمنوا فعليهم اتباع ما يطلبه الله . فحيثية كل حكم من الأحكام أن المؤمن قد آمن بمن أصدر الحكم ، فإياك أيها المؤمن أن تقول : « ما العلة » أو « ما الحكمة » وذلك حتى لا تدخل نفسك فى متاهة . ولا نزال نكرر هذه المسألة ، لأن هذه المسألة تطفو فى أذهان الناس كثيراً ، ويسأل بعضهم عن حكمة كل شىء ، ولذلك نقول : الشىء إذا عرفت حكمته صرت إلى الحكمة لا إلى الآمر بالحكم .

ونرى الآن المسرفين على أنفسهم الذين لا يؤمنون بإله ، أو يؤمنون بالله ولكنهم ارتكبوا الكبائر من شهادة زور ، إلى ربا ، إلى شرب خمر ، وعندما يحلل الأطباء للكشف عن كبد شارب الخمر - على سبيل المثال - نجده قد تليف ، وأن أى جرعة خمر ستسبب الوفاة . هنا يمتنع عن شرب الخمر. لماذا امتنع ؟. لأنه عرف الحكمة . وقد يكون قائلها له مجوسياً ، فهل كان امتناعه عن الحكم تنفيذاً لأمر إلهى ؟. لا ، ولكن المؤمن يمتنع عن الخمر لأنها حرمت بحكم من الله والمؤمن ينفذ كل الأحكام حتى فى الأشياء غير الضارة ، فمن الذى قال : إن الله لا يحرم إلا الشىء الضار ؟ إنه

قد يحرم أمراً تأديباً للإنسان . ونضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - نجد الزوج يقول لزوجه : إياك أن تعطى ابنتا بعضاً من الحلوى التى أحضرتها. هو يحرم على ابنه الحلوى لا لأنها ضارة ، ولكنه يريد تأديب الابن والتزامه .

والحق يقول :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

فالذى يذهب إلى تنفيذ حكم الله إنما يذهب إليه لأن الله قد قاله ، لا لأن حكمة الحكم مفيدة له ، فلو ذهب إنسان إلى الحكم من أجل فائدته أو ضرره فإن الإيمان يكون ناقصاً ، والله يدير فى كثير من الأوقات حكمته فى الأحكام حتى يرى الإنسان وجهاً من الوجوه اللا نهائية لحكمة الله التى خفيت عليه ، فيقول الإنسان : أنا كنت أقف فى حكمة كذا ، ثم بينت لى الأحداث والأيام صدق الله فيما قال . وهذا يشجع الإنسان أن يأخذ أحكام الله وهو مسلّم بها .

والحق يقول : « يا أيها الذين آمنوا » والإيمان هو الحيثية ، يا من آمنت بى إلهاً قادراً حكيماً . . اسمع منى ما أريده منك : « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله » والضرب - كما نعرف - هو انفعال الجارحة على شىء آخر بعنف وقوة . وقوله :

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٠١ سورة النساء)

معناها أن الحياة كلها حركة وانفعال ، ولماذا الضرب فى الأرض ؟ . لأن الله أودع فيها كل أقوات الخلق ، فحين يحبون أن يُخرجوا خيراتها ؛ يقومون بحرثها حتى يهيجوها ، ويرموا البذور ، وبعد ذلك الرّى . ومن بعد ذلك تخرج الثمار ، وهذه هى عملية إثارة الأرض . إذن كل حركة تحتاج إلى شدة ومكافحة ، والحق يقول :

﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة المزمل)

ومادامت المسألة ضرباً فى الأرض فهى تحتاج إلى عزم من الإنسان وإلى قوة .

ولذلك يقال : الأرض تحب من يهينها بالعزق والحرث . وكلما اشتدت حركة الإنسان فى الأرض أخرجت له خيراً . والضرب فى سبيل الله هو الجهاد ، أو لإعداد مقومات الجهاد . والحق سبحانه يقول لنا :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

فالإعداد هو أمر يسبق المعارك ، وكيف يتم الإعداد ؟.

أن نقوم بإعداد الأجسام ، والأجسام تحتاج إلى مقومات الحياة . وأن نقوم بإعداد العُدُد . والعدد تحتاج إلى بحث فى عناصر الأرض ، وبحث فى الصناعات المختلفة لنختار الأفضل منها . وكل عمليات الإعداد تطلب من الإنسان البحث والصنعة . ولذلك يقال فى الأثر الصالح :

« إن السهم الواحد فى سبيل الله يغفر الله به لأربعة » .

لماذا ؟. لأن هناك إنساناً قام بقطع الخشب الذى يتم منه صناعة السهم وصقله ، وهناك إنسان وضع للسهم الريش حتى يطيره إلى الأمام ، وهناك واضع النَّبْل ، وهناك من يرمى السهم بالقوس .

والحق يريد منا أن نكون أقوياء حتى يكون الضرب منا قوياً ، فيقول : « إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا » ونعرف أن الضرب فى سبيل الله لا يكون فى ساعة الجهاد فقط ، ولكن فى كل أحوال الحياة ، لأن كل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . و« تبينوا » تعنى ألا تأخذوا الأمور بظواهرها فلا تمضوا أمراً أو تعملوا عملاً إلا إذا تثبتم وتأكدتم حتى لا يصيب المؤمنون قوماً بظلم .

ولهذا الأمر قصة ، كان هناك رجل اسمه « محلِّم بن جَثّامة » ، وكان بينه وبين آخر اسمه « عامر بن الأضبط الأشجعى » إحن - أى شىء من البغضاء - وبعد ذلك كان « محلم » فى سرية ، وهى بعض من الجند المحدود العدد وصادف « عامراً الأشجعى » ، وكان « عامر » قد أسلم ، لذلك ألقى السلام إلى « محلّم » فقال « محلم » : إن عامراً قد أسلم ليهرب منى . وقتل محلم عامراً . وذهب إلى رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، وسأله الرسول : ولماذا لم تتبين ؟. ألم يلق إليك السلام ، فكيف تقول إنّه يقول : « السلام عليكم » لينقذ نفسه من القتل ؟

فقال « محلّم » : استغفر لى يا رسول الله .

وإذا ما قال أحد لرسول الله : استغفر لى يا رسول الله .. فرسول الله ببصيرته الإيمانية يعرف على الفور حالَ طالبِ الاستغفار ، فإن قال رسول الله: « غفر الله لك » فهو يعلم أنه كان معذوراً ، وإن لم يقل رسول الله ذلك ، فيعرف طالب الاستغفار أنه مذنب . ولأن بين « محلم » و« عامر » إحنا وعداوات قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمحلم : « لا غفر الله لك » ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم علم أن الإِحَنَ والبغضاء هى التى جعلته لا يدقق فى أمر « عامر » .

وقال الرواة : ومات محلّم بعد سبعة أيام من هذه الحادثة ، ودفنوه فلفظته الأرض . فجاءوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فذكروا ذلك له فقال : (إن الأرض تقبل مَن هِو شر من صاحبكم ولكن الله أراد أن يعظكم ، ثم طرحوه بين صدفى جبل وألقوا عليه الحجارة)[1] .

وعندما كانت تأتى آية مخالفة لنواميس الدنيا المفهومة للناس فالنبى يريد ألا يفتتن الناس فى هذه الآيات ، ومثال ذلك عندما مات إبراهيم ابن النبى . . انكسفت الشمس . . وقال الناس : انكسفت الشمس من أجل ابن رسول الله . ولكن لأن المسألة مسألة عقائد فقد وضحها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء فى الحديث الشريف :

عن المغيرة بن شعبة قال : كسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم مات إبراهيم ، فقال الناس : كسفت الشمس لموت إبراهيم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم فصلوا وادعوا الله »[2] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير .

(٢) رواه البخارى .

لقد قالوا ذلك تكريماً لرسول الله وابنه إبراهيم ، ولكن الرسول يريد أن يصحح للناس مفاهيمهم وعقائدهم . وكذلك عندما لفظت الأرض « محلم » حتى لا يفتتن أحد ولا يقولن أحد .إن كل من لا تلفظه الأرض هو حسن العمل ، فهناك كفار كثيرون قد دفنوا ولم يلفظوا . لذلك قال رسول الله : إن الأرض قبلت من هو شر من « محلم » ولكن الله أراد أن يعظ الناس حتى لا يعودوا لمثلها ، ولو لم يقل ذلك ، فماذا كان يحدث ؟ . قد تحدث هزة قليلة فى جزئية ولظن الناس وقالوا : إن كل من لم تلفظه الأرض فهو حسن العمل ، ولكان أبو جهل فى حال لا بأس به ، وكذلك الوليد بن المغيرة . لكن الرسول صلى الله عليه وسلم يضع مثل هذه الأمور فى وضعها الصحيح ؛ لذلك قال : إن الأرض تقبل من هو شر من « محلم » ، ولكن الله أراد أن يعظ القوم ألاّ يعودوا[1] .

« يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولو لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً » .

وعلى ذكر ذلك قال لى أخ كريم : كنت أسمع إحدى الإذاعات وأخطأوا وقالوا (فتثبتوا) بدل من (فتبينوا) فى قوله الحق :

﴿ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾

(من الآية ٦ سورة الحجرات)

وأقول : هذه قراءة من القراءات ، والمعانى دائماً ملتقية ، فـ « تبين » معناها « طلب البيان ليَتثبت » . ونعرف أن القرآن قد نزل على سبعة أحرف ، وكتابة القرآن كانت بغير نقط وبغير شكل ، وهذا حال غير حالنا ؛ حيث نجد الحروف قد تم تشكيلها بالفتحة والضمة والكسرة .

ونحن نعرف أن هناك حروفاً مشتبهة الصورة . فـ « الباء » تتشابه مع كل من : « الياء » ، والـ « نون » والـ « تاء » والـ « ثاء » ، ولم تكن هذه النقط موجودة ، ولم تكن هذه العلامات موجودة قبل الحجاج الثقفى ، وكانوا يقرأون من ملكة العربية ومن

---

(١) رواه أحمد وابن جرير .

تلقين واتباع للوحى ، ولذلك : « فتبينوا » ممن تتكون ؟ تتكون من : الـ « فاء » ولم يحدث فيها خلاف ، والـ « تاء » وبقية الحروف هى الـ « باء » والـ « ياء » والـ « نون » .

وكل واحدة من هذه الأحرف تصلح أن تجعلها « تثبتوا » بوضع النقاط أو تجعلها « تبينوا » ، إنه خلاف فى النقط . ولو حذفنا النقط لقرأناها على أكثر من صورة ، والذى نتبعه فى ذلك هو ما ورد عن الوحى الذى نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولذلك عندما جاءوا بشخص لم يكن يحفظ القرآن وأحضروا له مصحفاً ليقرأ ما فيه فقال : (صنعة الله ومن أحسن من الله صنعة) .

ولم يحدث خلاف فى الـ « صاد » ولكن حدث خلاف فى الـ «باء» فهى صالحة لتكون باءً أو نونًا ، وكذلك « الغين » يمكن أن تكون « عينًا » وقراءة هذه الآية فى قراءة « حفص » :

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾

(من الآية ١٣٨ سورة البقرة)

وعندما قرأها الإنسان الذى لا يجيد حفظ القرآن قال : (صنعة الله ومن أحسن من الله صنعة) . والمعنى واحد .

ولكن قراءة القرآن توقيفية ، واتباع للوحى الذى نزل به جبريل ـ عليه السلام ـ من عند الله على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا يصح لأحد أن يقرأ القرآن حسب ما يراه وإن كانت صورة الكلمة تقبل ذلك وتتسع له ولا تمنعه ، ولذا قالوا : أن للقراءة الصحيحة أركانا هى :

١ ـ أن تكون موافقة لوجه من وجوه اللغة العربية .
٢ ـ أن تكون موافقة لرسم أحد المصاحف العثمانية .
٣ ـ أن يصح إسنادها إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بطريق يقينى متواتر لا يحتمل الشك .

وهذه الضوابط نظمها صاحب طيبة النشر فقال :

وكل ما وافق وجه نحو | وكان للرسم احتمالا يحوى
وصح إسنادا هو القرآن | فهذه الثلاثة الأركان

وقوله تعالى :

﴿ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُ ﴾

(من الآية ١٥٦ سورة الأعراف)

هذه هى قراءة « حفص » وقرأ الحسن : (قال عذابى أصيب به من أساء) .

صحيح أن كلمة « أساء » وهى من الإساءة فيها ملحظ آخر للمعنى ، لكن القراءة الأخرى لم تبعد بالمعنى ، وعلى ذلك فكلمة « فتبينوا » تُقْرَأ مرة « فتثبتوا » ومرة تقرأ « فتبينوا » ، سواء فى هذه الآية التى نحن بصددها ، أو فى الآية التى يقول فيها الحق :

﴿ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾

(من الآية ٦ سورة الحجرات)

و« التبين » القصد منه التثبت ، والتبين يقتضى الذكاء والفطنة فيرى ملامح إيمان من ألقى إليه بالسلام :

﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ ﴾

(من الآية ٩٤ سورة النساء)

فالمسلم يجب أن يفطن كيلا يأخذ إنساناً بالشبهات ، ولذلك نجد النبى يحزم الأمر مع أسامة بن زيد الذى قتل واحداً بعد أن أعلن هذا الواحد إسلامه ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : (فكيف بلا إله إلا الله . هل شققت عن قلبه) ؟

ويقول أسامة للرسول : لقد قال الشهادة ليحمى نفسه من الموت . وتكون الإجابة : هل شققت قلبه فعرفت ، فكيف بلا إله إلا الله ؟! فلقول « لا إله إلا الله » حرمة .

وقد روى أن الذى نزلت فيه هذه الآية هو محلم بن جثامة ، وقال بعضهم : أسامة بن زيد ، وقيل غير ذلك . عن ابن عباس رضى الله عنهما « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا » وقال : كان رجل فى غنيمة له فلحقه المسلمون فقال : السلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمته ، فأنزل الله فى ذلك : « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا »(١) .

وأهل العلم بالله يقولون : نجاة ألف كافر خير من قتل مؤمن واحد بغير حق .

وجاء فى بعض الروايات الأخرى أنه المقداد ، وذلك فيما رواه البزار بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فيها المقداد بن الأسود فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا ويقى رجل له مال كثير لم يبرح ، فقال أشهد أن لا إله إلا الله ، وأهوى إليه المقداد فقتله فقال له رجل من أصحابه : أقتلت رجلا شهد أن لا إله إلا الله ؟ والله لأذكرن ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا يا رسول الله : إن رجلا شهد أن لا إله إلا الله فقتله المقداد فقال : ادعوا لى المقداد . يا مقداد أقتلت رجلا يقول : لا إله إلا الله ؟ فكيف لك بلا إله إلا الله غدا ؟ قال : فأنزل الله « ياأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله »(٢) .

« ياأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا» و« ألقى إليكم السلام » يعنى جاءكم مستسلما ، أو قال تحية المسلمين ، وليس من حق أحد أن يلقى الاتهام بعدم الإيمان على من جاء مسلماً ، أو يقول بتحية الإسلام .

وكلمة « عرض » إذا ما سمعناها ، فلنعلم أنها فى المعنى اللغوى : كل ما يعرض ويزول وليس له دوام أو استقرارأو ثبات . ونحن البشر أعراض ؛ لأنه ليس لنا دوام أبداً ، ويقال : إن الإنسان عرض إذا ما قاس الواحد منا نفسه بالنسبة للكون ؛ لأن

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه البزار .

الكون لا يتم بناؤه على الإنسان ؛ فالكون كله الذى نراه هو عرض وسيأتى يوم ويزول .

والعرض بالنسبة للإنسان أن الواحد منا قد يرى نفسه صحيحاً أو سقيماً ، هنا تكون الصحة عرضا وكذلك المرض ، وكذلك السمنة والنحافة ، ولون البشرة إذا ما لوحته الشمس قد يتغيرمن أبيض إلى أسمر ، وكذلك الغنى والفقر . وكل شىء يمكن أن يذهب فى الإنسان ويجىء هو عرض بالنسبة للإنسان ، ويكون الإنسان جوهراً بالنسبة له . فإذا قسنا الإنسان بالنسبة إلى ثابت عنه ، فالإنسان عرض ، فهذا أمر نسبى ، وإلاّ فكل شىء عرض ، وكل شىء زائل « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » .

« ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا » . وعرض الحياة الدنيا هنا هو أن يطمع القاتل فيما يملكه الذى يلقى السلام ، وقد يكون عرض الحياة الدنيا ـ هنا ـ هو كبرياء نفس الإنسان عندما ينتقم من إنسان بينه وبينه إحن أو بغضاء .

وعندما نجد كلمة « عرض » وهذا العرض فى « الحياة الدنيا » نفهم ـ إذن ـ أنه عرض فيها لا قيمة له . ولذلك نجد الشاعر يعبر عن مشاعر الإنسان حينما يحزن لفقدان شىء كان عنده ، وينسى الإنسان أنه هو شخصياً معرض للموت ، أى للذهاب عن الدنيا فيقول :

نفسى التى تملك الأشياء ذاهبة
فكيف آسى على شىء لها ذهبا

وكذلك عرض الحياة الدنيا . ونفهم كلمة « دنيا » على أساس الاشتقاق ، فهى من « الدنو » ومقابله « العلو » ومقابل « الدنيا » هو « العليا » . ومن يُقَوِّم عرض الحياة الدنيا التقويم الصحيح فهو يملك الذكاء والحكمة والفطنة ، لذلك لا يأخذ هذا العرض ممن سيقتله عندما يلقى إليه بالسلام ؛ لأنه يستخدم البصيرة الإيمانية ويأخذ الحياة الدنيا ممن خلقها . والعاقل حتى لو أراد الحياة الدنيا فهو يطلبها من صاحب الحياة كلها ، ولا يأخذها من إنسان مثله ، فالحياة الدنيا لا تنفعه ؛ بدليل أنه معرض للقتل .

« تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة » والحق سبحانه وتعالى ساعة يخاطب النفس البشرية التى خلقها ، ويعلم تعلقها بالأشياء التى تنفعها أو تطيل نفعها ، مثال ذلك : أنّ الإنسان يكون سعيداً إذا ما ملك غداءه ، وتكون سعادته أكثر إذا امتلك الغذاء والعشاء ، ويكون أكثر سعادة واطمئنانا عندما يملك فى مخزن طعامه ما يقيته شهراً أو عاماً ، ويكون أكثر إشراقاً عندما يمتلك أرضاً يأخذ منها الرزق ، ويمتلكها أولاده من بعده .

إذن فالإنسان يحب الحياة لنفسه ، ويحب امتداد حياته فى غيره ، ولذلك يحزن الإنسان عندما لا يكون له أولاد ؛ فهو يعرف أنه ميت لا محالة ، لذلك فهو يتمنى أن تكون حياته موصولة فى ابنه ، وإن جاء لابنه ابن وصار للإنسان حفيد فهو يسعد أكثر ؛ لأن ذكره يوجد فى جيلين . ونقول لمثل هذا الإنسان : لنفرض أنك ستحيا ألف جيل ، لكن ماذا عن حالتك فى الآخرة ، ألاَ تُنشىء ولدك على الصلاح حتى يدعو لك ؟

ولذلك يفاجىء الحق النفس البشرية التى تهفو إلى المغانم ، ويكشفها أمام صاحبها ، فيأتى بالحكم الذى يُظهر الخواطر التى تجول فى النفس ساعة سماع الحكم . وعندما أراد سبحانه أن يُحرم دخول المشركين البيت الحرام ، وسبحانه يعلم خفايا النفوس ؛ لأن المشركين حين يدخلون البيت الحرام بتجاراتهم وأموالهم إنما يدخلون مكة من أجل موسم اقتصادى يبيعون فيه البضائع التى يعيشون من ريعها وربحها طوال العام . وساعة يحرم سبحانه دخول المشركين إلى البيت الحرام ، يعلم أن أهل الحرم ساعة يسمعون هذا الحكم سيتذكرون مكاسبهم من التجارة ، فقال :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وقبل أن يقول أهل الحرم فى أنفسهم : وكيف نعيش ونصرف بضائعنا ؟ ، يتابع سبحانه :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وبذلك يكشف الحق أمام النفوس خواطرها الدفينة ؛ فهو العليم بأن الحكم ساعة ينزل ما الذى سيحدث فى أذهان سامعيه ؛ فهو خالقهم ، ولذلك فلا أحد له من بعد ذلك تعليق !

وقوله الحق : « تبتغون عرض الحياة الدنيا » ينطبق فى كل عصر وفى كل زمان . ويقول الحق بعد ذلك : « فعند الله مغانم كثيرة » . فسبحانه الرزّاق الوهاب . ولذلك أنا أحب أن يزين الناس أماكنهم ومساكنهم بلوحات فنية مكتوب عليها :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وكذلك قول الحق :

﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾

(من الآية ٩٤ سورة النساء)

لعل ذلك يمس قلوب من بيدهم الأمر ، فيلتفتوا إلى الله . وبعد ذلك يقول الحق : « كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا » .

وفى هذا دعوة لأن يمر من نزل فيهم القرآن بتاريخهم القريب ويسترجعوا ماضيهم ، فلماذا يتهم المسلم أخاه الذى يلقى السلام بأنه مازال كافراً ولا يفكر أن الذى ألقى إليه السلام هو إنسان يستر إسلامه بين أهله لأنهم كفار ؟ وكان المسلم يمر بهذه الحالة عند بداية الإسلام ؛ كان المسلم يستر إسلامه عن أهله الذين كانوا كافرين . وكان المسلمون الأوائل قلة مستذلة تدارى إيمانها ، فهل سلط الله عليهم أحداً يجترىء على التفتيش على النوايا ؟ إذن فمثلما حدث لكم قدروه لإخوانكم .

« كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم » والحق يمن عليهم بأنهم صاروا أهل رفعة بكلمة الإسلام ، وصار المسلم منهم يمشى عزيز الجانب ولا يجرؤ واحد أن يوجه إليه أى شىء . ويأتى سبحانه هنا بكلمة « فتبينوا » مرة أخرى بعد أن قالها فى صدر الآية . وكان مقصوداً بها ألا يقتل مسلم إنساناً ألقى السلام لمجرد أن المسلم يفكر فى

المسألة الاقتصادية ، وها هوذا يعيد سبحانه كلمة « تبينوا » ، لقد جاءت أولاً كتمهيد للحيثية ، وهى قوله : « تبتغون عرض الحياة الدنيا » وتأتى هاهنا نتيجة للحيثية « فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا » .

وسبحانه حين يشرع لا يشرع عن خلاء ، لكنه خبير بكل ما يصلح النفس الإنسانية ، ولا يعتقدن أحد أنه خلقنا ثم هدانا إلى الإيمان ليخذلنا فى نظام الحياة ، بل خلقنا وأعطانا المنهج لنكون نموذجاً ، وليرى الناس جميعاً أن الذى يحيا فى رحاب المنهج تدين له الدنيا .

« إن الله كان بما تعملون خبيرا » . كأن الحق يقول : إياك أن تستر بلباقتك شيئاً وتخلع عليه أمرا غير حقيقى ؛ لأن الذى تطلب جزاءه هو الرقيب عليك والحسيب ، ويعلم المسألة من أولها إلى آخرها . فالذى قتل إنساناً ألقى إليه السلام ، لم يقتله لأنه لم يُسلم ، ولكن لأن بينهما إحناً وبغضاء ، وعليه أن يعرف أن الله عليم بما فى النفوس .

ويريد الحق أن يتثبت المؤمن من نفسه حين يوجهها إلى قتل أحد يشك فى إسلامه أو فى إيمانه ، وحسبه من التيقن أن يبدأه صاحبه بالسلام ، ويُذَكّر الحق سبحانه المؤمنين بأنهم كانوا قبل ذلك يستخفون من الناس بالإيمان وكانوا مستترين .

فإذا كنتم أيها المؤمنون قد حدث لكم ذلك فاحترموا من غيركم أن يحصل منه ذلك ، وثقوا تمام الثقة أن الله عليم خبير ، لا يجوز عليه ـ سبحانه ـ ولا يخفى عليه أن يدس أحدكم الإحن النفسية ليُبرر قتل إنسان مسلم كانت بينه وبين ذلك المسلم عداوة .

وبعد أن تكلم الحق عن قتال المؤمنين للكافرين ، وبعد أن تكلم عن تحريم قتل المؤمن للمؤمن حتى لا يفقد المؤمنون خلية الإيمان ، بل تكون حياة كل مؤمن خيراً للحركة الإيمانية فى الأرض ، لذلك علينا أن نحافظ على حياة كل فرد مؤمن لأنه سيساعدنا فى اتساع الحركة الإيمانية ، فإن حدث أن قتل مؤمن مؤمناً خطأ ، فقد بين سبحانه وتعالى الحكم فى الآية رقم ٩٢ من سورة النساء .

وبعد ذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين الفارق بين من قعد عن الجهاد فى سبيل الله ومن جاهد فقال سبحانه :

﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ ﴾

ولهذه الآية قصة .. واقتناص الخواطر من هذه القصة يتطلب يقظة تعلمنا كيف يخاطب الحق خلقه . فقد حدثنا سيدنا زيد بن ثابت وهو المأمون على كتابة وحى رسول الله . وهو المأمون على جمع كتاب الله من اللخاف[1] ومن العظام ومن صدور الصحابة ، حدثنا فقال :

ـ كنت إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فغشيته السكينة ـ وهذه كانت دائماً تسبق نزول الوحى على رسول الله ـ فوقعت فخذه على فخذى حتى خشيت أن تَرُضَّها .

أى أن فخذ رسول الله كانت ثقيلة .

والوحى ساعة كان يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ربّما كان يصنع فى كيماوية رسول الله تأثيرا مادياً بحيث إذا كان على دابة عرف الناس أنه يوحى إليه ؛ لأن الدابة كانت تئط تحته فإذا كانت فخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذ

(١) اللِّخاف : حجارة بيض رقاق ، واحدها لخفة .

زيد بن ثابت ، فلابد أن يشعر سيدنا زيد بثقل فخذ رسول الله وقد جاءه الوحى . قال زيد : خشيت أن ترضّ فخذه فخذى ـ أى تصيبها بالدّق الشديد أو الكسر . فلما سُرى عنه قال اكتب : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون » ، فقال سيدنا ابن أم مكتوم ، وكان ـ كما نعلم ـ ضريراً مكفوف البصر قال : فكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين يا رسول الله ؟

إنها اليقظة الإيمانية من ابن أم مكتوم ، لأنه فهم موقفه من هذا القول ، ومن أنه لا يستطيع الجهاد ، وعلم أنه إن كانت الآية ستظل على هذا فلن يكون مستوياً مع من جاهد ، ولهذا قال قولته اليقظة : فكيف بمن لا يستطيع ذلك يا رسول الله ؟

فأخذت رسول الله السكينة ثانيةً ، ثم سرى عنه ، فقال لزيد بن ثابت : اكتب : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله » .

فكأنها نزلت جواباً مطمئناً لمن لا يستطيع القتال مثل ابن أم مكتوم .ولقائل أن يقول : وهل كانت الآية تنتظر أن يستدرك ابن أم مكتوم ليقول هذا ؟ .

ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى أراد أن ينبه كل مؤمن أنه حين يتلقى كلمة من الله أن يتدبر ويتبينّ موقعه من هذه الكلمة ؛ فإذا كان ذلك حال سيدنا ابن أم مكتوم فيما سمع رسول الله عن ربه فهو يعلمنا كيف نستحضر دورنا من أية قضية نسمعها . وحينما سمع ابن أم مكتوم الآية رأى موقفه من هذه الآية ، وهذا ما يريده الحق من خلقه .

وقال زيد بن ثابت : فكتبتها .

إنها الدقة فى أداء زيد بن ثابت لتدلنا على صدق الرواية ، فحين يكتب أولاً « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون » ألا تلتصق كلمة « والمجاهدون » بكلمة « المؤمنين » فإذا زاد الحق سبحانه وتعالى « غير أولى الضرر » فأين تكتب ؟

كأن زيد بن ثابت كان عليه أن يقوم بتصغير الكتابة ليكتب « غير أولى الضرر » بين كلمة « من المؤمنين » وكلمة « المجاهدون » . قال سيدنا زيد بن ثابت : لقد

نزلت « غير أولى الضرر » وحدها وكأنى أنظر إلى ملحقها عند صدع الكتف ـ فقد كانوا يكتبون على أكتاف العظم ـ والكتف التى كتب عليها سيدنا زيد بن ثابت كانت مشروخة وكانت هذه علامة بها .

ويريد الحق بذلك أن ينبه المؤمنين إلى أنهم حين يتلقون كتاب الله يجب أن يتلقوه بيقظة إيمانية بحيث لا تسمع آذانهم إلا ما يمر على عقولهم أولاً ليفهم كل مؤمن موقفه منها ، وتمر الآية على قلوبهم ثانية لتستقر فى ذاتهم عقيدة .

كذلك كانت قصة زيد بن ثابت وابن أم مكتوم والوحى فى هذه الآية : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون » .

وهناك حالات يأتى الفعل فلا يصلح له فاعل واحد بل لابد له من اثنين . . مثال ذلك عندما نقول : تشارك زيد وعمرو . وعندما نصف لاعبى الكرة ، نجد من يتلقف الكرة واحداً بعد الآخر ، فنقول : تلقف اللاعبون الكرة رجلاً بعد رجل .

وعندما يقول الحق : « لا يستوى » فهذا يدل على أن هناك شيئين لا يتساويان ، فأيهما غير المساوى للآخر ؟. كلاهما لا يتساوى مع الآخر ، ولذلك يكون الاثنان فى الإعراب « فاعلا » ، فلا يساوى المجاهدون القاعدين ولا يساوى القاعدون المجاهدين ؛ لأن كلا منهما فاعل ومفعول .

وعندما نقول : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين » فما هو مقابل « القاعدين » فى الآية الكريمة ؟ إنه « المجاهدون » ، لكن المقابل فى الحياة العادية لـ « القاعدين » هو « القائمون » ، ومقابل « المجاهدين » هو « غير المجاهدين » . وبذلك كان من الممكن القول : لا يستوى القاعدون والقائمون ، أو أن يقال : لا يستوى المجاهدون وغير المجاهدين . فما الحكمة فى مجىء القاعدين والمجاهدين ؟

إن الحق يريد أن يبين أنه فى بداية الإسلام كان كل مؤمن حين يدخل الإسلام يعتبر نفسه جندياً فى حالة تأهب ، وكانوا دائماً على درجة استعداد قصوى ليلبوا النداء فوراً ؛ فالمسلم لم يكن فى حالة استرخاء ، بل فى تأهب وكأنه واقف دائماً ليلبى

النداء ، وكأن القاعد هو الذى ليس من صفوف المؤمنين ، ويبين لنا ذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « من خير معاش الناس لهم رجل ممسك عنان فرسه فى سبيل الله يطير على متنه ، كلما سمع هَيْعَةً أو فزعة طار إليها يبتغى القتل والموت مَظَانَّه ، أو رجل فى غنيمة فى رأس شعفة من هذه الشعف ، أو بطن واد من هذه الأودية يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ، ليس من الناس إلا فى خير »[1] .

فإن لم يكن المؤمن متأهباً فهو قاعد ، والقاعد ـ كما نعرف ـ هو ضد القائم . والحق يقول :

﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النساء)

من هذا القول نعرف أن المقابل للقيام هو القعود .

وعلينا أن نعرف أن لكل لفظ معنىً محدداً ، فبعضنا يتصور أن القعود كالجلوس ، ولكن الدقة تقتضى أن نعرف أن القعود يكون عن قيام ، وأن الجلوس يكون عن الاضطجاع ، فيقال : كان مضطجعاً فجلس ، وكان قائما فقعد .

وعندما يقول الحق هنا : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر » فالقعود مقابل القيام ، فكأن المجاهد حالته القيام دائما ، وهو لا ينتظر إلى أن يقوم ، لكنه فى انتباه واستعداد . ويوسع الحديث الشريف الدائرة فى مسئوليات المجاهد فيرسم صورة للمقاتل أنه على أتم استعداد وعلى صهوة الفرس وممسك باللجام حتى لا تدهمه أية مفاجأة .

وهل كانت هناك مظنة أن يستوى القاعد والمجاهد ؟ . لا ، ولكن يريد الله أن يبين قضية إيمانية مستورة ، فيظهرها بشكل واضح لكل الأفهام .

ونحن نقول للطالب : « إن من يستذكر ينجح ومن لا يستذكر يرسب » وهذه

(١) رواه مسلم فى الإمارة وابن ماجه فى الفتن ورواه أحمد . و(الهيعة) هى الصوت عند حضور العدو . و(الفزعة) هى النهوض إلى العدو . و(الشعفة) هى أعلى الجبل .

مسألة بديهية ، لكننا نقولها حتى نجعلها واضحة فى بؤرة شعور التلميذ فيلتفت لمسئولياته .

وعندما يقول الحق : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله » هل معنى ذلك أن عقلاً واحداً فى زمن رسول الله كان يظن المساواة بين القاعد والمجاهد ؟ لا ، ولكن الحق يريدها قضية إيمانية فى بلاغ إيمانى من الله . وبعد ذلك يلفت الأنظار إلى صفة القاعدين الذين لا يستوون مع المجاهدين فيقول : « غير أولى الضرر » . والضرر هو الذى يفسد الشىء مثل المرض ، وهذا ما يوضحه قوله الحق :

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فالضعف ضرر أخرج الإنسان عن مقومات الصحة والعافية ، والمرض ضرر ، والذين لا يجدون مالاً ينفقون منه ، ولا الذين يجيئون لرسول الله فلا يكون بحوزة الرسول دواب تحملهم ، فينصرفون وأعينهم تفيض من الدمع حزناً لأنهم لا يجدون ما ينفقون . وكان المؤمن من هؤلاء يحزن لأن رسول الله لم يجد له فرساً أو دابة تنقله إلى موقع القتال :

﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

لقد تولوا وأعينهم تفيض من الدمع . وكلمة « تولوا » هنا لها معنى كبير ، فلم يقل الحق : إن أعينهم تفيض من الدمع من غير التولى ، هم لا يدمعون أمام

النبى ، ولكنهم يدمعون فى حالة توليهم ، وهذا انفعال نفسى من فرط التأثر ؛ لأنهم لا يشتركون فى القتال . وكلمة « تفيض » تدل على أن الدمع قد غلب على العين كلها ، فهم لا يصطنعون ذلك ، لكن الانفعال يغمرهم ؛ لأن الذى يتصنع ذلك يقوم بتعصير عينيه ويبذل جهداً للمُراءاة ، ولكن انفعال المؤمنين الذين لا يقاتلون يغلبهم فتفيض أعينهم من الدمع .

وهناك آية أخرى حدد فيها الحق الحالات التى لا يطالب فيها المؤمن بالقتال :

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الفتح)

هؤلاء - إذن - هم أولو الضرر .

« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم » ومادامو لا يستوون فمن الذى فيهم يكون هو الأفضل ؟ .

ذلك ما توضحه بقية الآية التى تحمل المقولة الإيمانية الواضحة : « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى » . وسبحانه وعد الاثنين بالحسنى الإيمانية ؛ لأن كُلًا منهما مؤمن ، ولكن للمجاهد درجة على القاعد . وإن تساءل أحد : ولماذا وعد الله القاعد من أولى الضرر بالحسنى ؟ وهنا أقول : علينا أن ننتبه وأن نحسن الفهم والتدبر عندما نقرأ القرآن ؛ لأن الذى أصابته آفة فناله منها ضرر ، فصبر لحكم الله فى نفسه ، ألا يأخذ ثواباً على هذه ؟ .

لقد أخذ الثواب ولابد - إذن - أن يعطى الحق من لم يأخذ ثوابا مثله فرصة ليأخذ ثواباً آخر حتى يكون الجميع فى الاستطراق الإيمانى سواء . لذلك يقول سبحانه : « وكلا وعد الله الحسنى » .

والحسنى فى أولى الضرر أنه أخذ جزاء الصبر على المصيبة التى أصابته ، والذى لم يصب بضرر سيأخذ ثواب الجهاد ، وبذلك يكون الجميع قد نالوا الحسنى من الله .

« وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً » .

وسبحانه يضع أجراً جديداً للقائم مجاهداً على القاعد ، ففى صدر الآية جاء بـ « درجة » أعلى للقائم مجاهداً ، وهنا « أجر عظيم » . ما تفسير هذا الأجر العظيم ؟. التفسير يجىء فى قوله :

﴿ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾

فسبحانه قد أعطى لأولى الضرر درجة ، وفضّل المجاهد فى سبيل الله على القاعد من غير أولى الضرر درجات عدة . وساعة نسمع كلمة « درجة » فهى المنزلة ، والمنزلة لا تكفى فقط للإيضاح الشامل للمعنى ، ولكن هى المنزلة الارتقائية . أما إن كان التغير إلى منازل أخرى أقل وأدنى ، فنحن نقول : « دركات » ولا نقول : « درجات » .

ولكن هل الدرجات هى لكل المجاهدين ؟. لا ، لأننا لابد أن نلحظ الفرق بين الخروج من الوطن وترك الأهل للجهاد ، وعملية الجهاد فى ذاتها ؛ فعملية الجهاد فى ذاتها تحتاج إلى همة إيمانية ، ولذلك جاء الحق بنص فى سورة التوبة :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ

اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

(سورة التوبة)

هنا يوضح الحق أنه لا يصح لأهل المدينة والأعراب الذين حولهم أن يتخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ، ولا يرضوا لأنفسهم بالسعة والدعة والراحة ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشدة والمشقة ، فكما ذهب إلى القتال يجب أن يذهبوا ؛ لأن الثواب كبير ، فلا يصيبهم تعب إلا ولهم عليه أجر العمل الصالح ، ولا يعانون من جوع إلا ولهم أجر العمل الصالح ، ولا يسيرون فى مكان يغيظ الكفار إلا ولهم أجر العمل الصالح . ولا ينالون من عدو نيلا إلا ويكتبه الله لهم عملاً صالحاً ، فسبحانه يجزى بأحسن ما كانوا يعملون .

وقام العلماء بحصر تلك العطاءات الربانية بسبع درجات ، فواحد ينال الدرجات جميعاً . وآخر أصابه ظمأ فقط فنال درجة الظمأ ، وآخر أصابه نصب فأخذ درجة النصب أى التعب ، وثالث أصابته مخمصة ، ورابع جمع ثلاث درجات ، وخامس جمع كل الدرجات .

وعندما نقوم بحساب هذه الدرجات نجدها : للإصابة بالظمأ ، النَّصَب - أى التعب - الجوع ، ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار أى لا ينزلون فى مكان يتمكن فيه المسلمون منهم ويبسطون سلطانهم عليهم ، والمقصود الحصن الحصين عند الكافر ، النَّيْل : التنكيل بالعدو ، النفقة الصغيرة أو الكبيرة ، وقطع أى واد فى سبيل الله ، وهذه هى الدرجات السبع التى يجزى الله عنها بأحسن مما عمل أصحابها ، كما فسرها العلماء ، فمن نال الدرجات السبع فقد نال منزلة عظيمة ، وكل مجاهد على حسب ما بذل من جهد . فمن المجاهدين من ينال درجة أو اثنتين أو ثلاث أو أربع أو خمس أو ست أو سبع درجات . وعندما نقرأ الآيتين معاً :

﴿ لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا

﴿ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ٩٦ ﴾

(سورة النساء)

نجد أن الله يُرغّب المؤمنين فى أن يكونوا مجاهدين ، وأن يبذلوا الجهد لتكون كلمة الله هى العليا . فإذا ما آمن الإنسان فليس له أن يتخلف عن الصف الإيمانى ، لأنه مادام قد نفع نفسه بالإيمان فلِمَ لا ينضم إلى ركب من ينفع سواه بالإيمان ؟ . ويريد الله أن يعبئ كل مَنْ مسّ الإيمان قلبه ، وحتى ولو كان موجوداً فى مكان يسيطر عليه الكفار ، فيدعوه لأن يتخلص من التفاف الكفار حوله وليخرج منضماً إلى إخوته المؤمنين . وليشيع الإيمان لسواه ويعبر عملياً عن حبه للناس مما أحبه لنفسه . ولكن هناك من قالوا : نحن ضعاف غير قادرين على الهجرة أو القتال فى سبيل الله . فيأتى القرآن بقطع العذر لأى إنسان يتخلف عن ركب الجهاد فى سبيل الله وسبيل نصرة دين الله فيقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧ ﴾

هؤلاء هم الذين يظلمون أنفسهم بعدم المشاركة فى الجهاد وهذا ما يحدث لهم عندما تقبض الملائكة أرواحهم . و« التوفى » معناه « القبض » ؛ فيقال : « توفيت دَيْنى » أى قبضته مستوفياً . ويقال : « توفى الله الإنسان » أى قبضه إليه مستوفياً . والقَبض له آمر أعلى ، وهو الحق . ومن بعد ذلك هناك موكل عام هو « عزرائيل » ملك الموت ، وهناك معاونون لعزرائيل وهم الملائكة . فإذا نسبت الوفاة فهى تنسب مرة لله ، فالله يتوفى : لأنه الآمر الأعلى ، وتنسب الوفاة للملائكة فى قوله :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

وتنسب الوفاة إلى عزرائيل .

﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة السجدة)

وإذا ما أطلق الحق هذه الأساليب الثلاثة فى وصف عملية الوفاة فهل هذا اختلاف وتناقض وتضارب فى أساليب القرآن ؟ لا ، بل هو إيضاح لمراحل الولاية التى صنعها الله ، فهو الأمر الأعلى يصدر الأمر إلى عزرائيل ، وعزرائيل يطلق الأمر لجنوده . وفى حياتنا ما يشرح لنا هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ فالتلميذ قد يذهب إلى المدرسة بعد امتحان آخر العام ويعود إلى بيته قائلاً : لقد وجدت نفسى راسباً ، والسبب فى ذلك هم المدرسون الذين قصدوا عدم إنجاحى .

ويرد عليه والده : المدرسون لم يفعلوا ذلك ، ولكن اللوائح التى وضعتها الوزارة لتصحيح الامتحانات هى التى جعلتك راسباً . فيرد التلميذ : لقد جعلنى الناظر راسباً . وهذا قول صحيح ؛ لأن الناظر يطبق القوانين التى يحكم بمقتضاها على الطالب أن يكون ناجحا أو راسبا . وقد يقول التلميذ : إن وزير التربية والتعليم هو من جعلنى راسباً . وهذا أيضاً صحيح ؛ لأن الوزير يرسم مع معاونيه الخطوط الأساسية التى يتم حساب درجات كل تلميذ عليها ، فإذا قال التلميذ : لقد جعلتنى الدولة راسباً ، فهو قول صحيح ؛ لأنه فهم تسلسل التقنين إلى مراحل العلو المختلفة ، وأى حلقة من هذه الحلقات تصلح أن تكون فاعلاً . ومن هنا نفهم أن الحق سبحانه حين يقول :

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الزمر)

فهذا قول صحيح ، مثل قوله سبحانه :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة السجدة)

ومثل قوله سبحانه :

﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

كل هذه الأقوال صحيحة ؛ لأنها تتعلق بمدارج الأمر .

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم » والظلم هو أن تأتي لغير ذي الحق وتعطيه ما تأخذ من ذي الحق ، والظلم يقتضي ظالماً ومظلوماً وأمرا وقع الظلم فيه . فكيف يكون الإنسان ظالماً لنفسه وتتوفاه الملائكة على ذلك ؟ . لابد أنهم فعلوا ما يستحق ذلك.فساعة تأتي للإنسان الشخصية المعنوية الإيمانية بعد أن آمن بالله وآمن بالمنهج ؛ ثم تحدثه نفسه بالمخالفة ، هنا يواجه صراعاً بين أمرين : مسئولية الشخصية الإيمانية التي تَقَبَّل بها المنهج من الله ، ووازع النفس التي تلح عليه بالانحراف . ويدور ما هو أشبه بالحوار بين المسئولية الإيمانية ووازع النفس الملح بالانحراف . وعندما تتغلب النفس الإيمانية يعرف الإنسان أن نفسه صارت مطمئنة وسعيدة ، ويقول لنفسه : إنك إن طاوعت وازع الانحراف تكن قد حققت شهوة عاجلة ستكوى بها في آخر الأمر ، وأنت برفضك للشهوة تكون قد أنصفت نفسك . ولو طاوعت شهوتك العاجلة تكون قد ظلمت نفسك .

ومثل ذلك يحدث في حياتنا العادية : عندما تدلل الأم ابنها بينما يطلب منه والده الاستذكار ويحاول أن يردعه ليقوم بمسئوليته الدراسية ، إن هذه الأم تظلم ابنها ، وكذلك يعطينا الحق فكرة عن الصراع بين الشخصية الإيمانية والنفس الانحرافية التي تريد الهوى فقط فيقول :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة المائدة)

هنا يقول هابيل لقابيل :

ـ ولماذا تقتلني ؟ . إنني لست أنا الذي تقبل القربان ولكن الذي تقبله هو الله فما ذنبي ؟ .

ويأتى بعد ذلك الحوار :

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ولنلتفت إلى هذا القول الحكيم :

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة المائدة)

كأن هناك صراعاً فى نفس قابيل بين أمرين « اقتل » و« لا تقتل » ، النفس الإيمانية تقول : « لا تقتل » والنفس الشهوانية تقول : « بل عليك أن تقتل » .

وتغلبت النفس الشهوانية عندما طوعت له قتل أخيه ، ومهدت له ذلك . وبعد أن قتل أخاه ، وضاعت شِرَّة الغضب صار من النادمين ، ثم بدأت الحيثيات تظهر وتتضح . ويبعث الله غراباً يبحث ويحفر فى الأرض ليوارى جثة غراب آخر . هنا قال قابيل :

﴿ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ﴾

(من الآية ٣١ سورة المائدة)

وهكذا نرى أن ظلم النفس هو أن نخالف ما شرع الله للنفس لينفعها نفعاً أبدياً مستوفياً ، ولكن النفس قد تندفع وراء حبها للشهوات وتمنيها للنفع العاجل الذى لا خلود له ، وعندما يحقق الإنسان هذا النفع العاجل لنفسه فهو يظلم نفسه .

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم » إذن فالملائكة تسأل ظالمى أنفسهم : « فيم كنتم » أى فى أى شىء كنتم من أمر دينكم ؟ والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع أى لماذا ظلمتم أنفسكم ؟ ولماذا لم تفعلوا مثلما فعل إخوانكم وهاجرتم وانضممتم لموكب الإيمان وموكب الجهاد ؟ . ، ولماذا ظللتم فى أماكنكم محجوزين ومحاصرين ولا تستطيعون الحركة ولا تستطيعون الفِكاك ؟ وتكون إجابة

الذين ظلموا أنفسهم : « قالوا كنا مستضعفين فى الأرض » . وبالله عندما يحكى لنا الله هذه الصورة التى تحدث يوم القيامة فهل سيكون عندنا وقت للاستفادة منها ؟. طبعاً لا ؛ لأنه لن يكون لنا قدرة الاستدراك لنصحح الخطأ .

والحق حين يقص علينا هذا المشهد فذلك من لطفه بنا ، وتنبيه لكل منا : احذروا أن يأتى موقف ويحدث فيه ما أوضحته لكم ولن يستطيع أحد أن يستدرك الحياة ليصنع العمل الطيب . وعلى كل منكم أن يبحث أمر نفسه الآن .

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض » وكلمة « كنا مستضعفين فى الأرض » تفيد أن قوماً استضعفوهم ، أى أنهم لم يكونوا قادرين على الخروج والهجرة ولا يعرفون السبيل إليها ، وخافوا على أموالهم وديارهم ، والقوم الذين استضعفوهم قالوا لهم : إن خرجتم لا تأخذوا شيئاً من أموالكم . هذه هى بعض مظاهر الاستضعاف . وهنا تقول الملائكة ما يفيد أن هذا الكلام لا يليق ولا ينفع ، تقول الملائكة : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » .

وكأن هذا تنبيه آخر ، وإعلان أن مثل هذا القول ومثل تلك الحجة لا قيمة لها ؛ لأن الذى يمسكه مكانه وماله دون الله إنما هو من وضع وربط يقينه بالأسباب . أما الذى يضع منهج الله فوق مكانه وولده وكل شىء فهذا هو الذى وثق بالله لأنه هو المسبب وهو مانح ومعطى الأسباب .

« ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » وهذا القول على لسان الملائكة قادم من القانون الأعلى ، فقد خلق الحق الخلق جميعاً وأسكنهم فى الأرض ، وهذه الأرض ليست لأحد دون أحد ، فمن يضق به مكان فليذهب إلى مكان آخر .

وإذا كان الإنسان من ظلمه وجبروته وعتوه قد صنع تحديدا للمكان ، فلا ينتقل إنسان من مكان إلى مكان إلا بعد سلسلة طويلة من التعقيدات التى تحول دون الانتقال من مكان إلى مكان ، فذلك مناقضة لقضية الخلافة فى الأرض ؛ لأن الخلافة لم توزع كل جماعة على أرض ما . ولكن الإنسان ، كل إنسان خليفة فى الأرض كل الأرض ، مصداقاً لقول الحق :

﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

فقد جعل الله الأرض متضعة مسخرة مذللة للإنسان ، والأرض هى أى أرض ، والأنام هم كل الأنام . وإن لم ينتبه العالم إلى هذه القضية ويجعلها قضية كونية اجتماعية ، سيظل العالم فى فساد وشقاء . فالذى يجعل الحياة فى الأرض فاسدة هو خروج بعض الآراء التى تقول : إن الكثافة السكانية تمنع أن نجد الطعام لسكان بلد ما . يقولون ذلك فى حين أن أرضاً أخرى تحتاج إلى أيد عاملة ، ولذلك نجد أن البشرية أمام وضع مقلوب ، فأرض فى بلاد تحتاج إلى أناس ، وأناس فى بلاد يحتاجون إلى الأرض .

ومن الواجب أن تسيح المسألة فتأخذ الأرض التى بلا رجال ما تحتاجه من الرجال من البلاد التى لا أرض فيها . وهذا الضجيج الذى يعلو فى الكون سببه أنه يوجد فى كون الله أرض بلا رجال ورجال بلا أرض ، فإذا ما ضاق مكان بإنسان فله أن يذهب إلى مكان آخر ، ولو كان الأمر كذلك لسعدت البشرية ، ومن ينقض هذه القضية فعليه أن يعرف أنه يأخذ الخلافة فى الأرض بغير شروطها ، فالذى يفسد الأمر فى الأرض أن الإنسان الخليفة فى الأرض نسى أنه خليفة واعتبر نفسه أصيلاً فى الكون . وما دام قد اعتبر نفسه أصيلاً فى الكون فهذا هو الفساد :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾

(سورة النساء)

إذن ، فإن أقام الإنسان على ضيم ولم يعمل فكره وعقله ولم يطرح قضية الكون أمامه ليرى الأرض التى تسعه فيهاجر فيها فعليه أن يعرف أنه مهدد بسوء المصير ؛ لأن الله قد جعل له الكون كله ليكون فيه خليفة ، أمّا الذين سوف ينجون من هذا العقاب ومن تعنيف الملائكة لهم ساعة الوفاة فهم مَن يقول عنهم الحق فى الآية التالية :

﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ ﴾

وعلينا أن نعرف أن هناك فرقاً بين « مستضعف دعوى ومستضعف حقيقى » ، فهناك مستضعف قد قبل استضعاف غيره له وجعل من نفسه ضعيفاً. هذا هو « مستضعف دعوى » .

أما « المستضعف الحقيقى » فهو من هؤلاء الذين يحددهم الحق :

« إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً » . هؤلاء هم المستضعفون فعلاً حسب طبيعة عجزهم من الرجال والنساء والولدان .

هل الولد من الولدان يكون مستضعفاً ؟ نعم ؛ لأن الاستضعاف إما أن يكون طارئاً وإما أن يكون ذاتياً ؛ فبعض من الرجال يكون مملوكاً لغيره ولا يقدر على التصرف أو الذهاب ، وكذلك النساء ؛ فالمرأة لا تستطيع أن تمشى وحدها وتحمى نفسها ، بل لا بد أن يوجد معها من يحميها من زوج أو محرم لها ، وكذلك الولدان ؛ لأنهم بطبيعتهم غير مكلفين وهم بذلك يخرجون عن نطاق التعنيف من الملائكة ؛ لأنهم لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً .

وهذه دقة فى الأداء القرآنى ، فالإنسان مكلف بالخروج عن ظلم غيره له ولو بالاحتيال ، والاحتيال هو إعمال الفكر إعمالاً يعطى للإنسان فرصة أكثر مما هو متاح له بالفعل . فقد تكون القوة ضعيفة . ولكن بالاحتيال قد يوسع الإنسان من فرص القوة . ومثال ذلك : الإنسان حين يريد أن يحمل صخرة ، قد لا يستطيع ذلك بيديه ، لكنه أن يأتى بقضيب من الحديد ويصنع منه عتلة ويضع تحت العتلة عجلة ، ليدحرج الصخرة ، هذه هى حيلة من الحيل ، وكذلك السّقالات التى نبنى عليها ، إنها حيلة .

والذى قام ببناء الهرم ، كيف وضع الحجر الأخير على القمة ؟ لقد فعل ذلك

بالحيلة ، والذى جلس لينحت مسلة من الجرانيت طولها يزيد على العشرة الأمتار ، ثم نقلها وأقامها. إنّه فعل ذلك بالحيلة . فالحيلة هو فكر يعطى الإنسان قدرة فوق قدرته على المقدور عليه ، كذلك معرفة السبيل إلى الهجرة . وكانت معرفة الطرق إلى الهجرة من مكة إلى المدينة فى زمن رسول الله تحتاج إلى خبرة حتى يتجنب الواحد منهم المفازات والمتاهات ، وحينما قام الرسول بالهجرة أحضر دليلاً للطريق ، وكان دليله كافراً ، فلا يتأتى السير فى مثل هذه الأرض بلا دليل .

ولننظر إلى قول الحق سبحانه :

﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾

« فأولئك » إشارة إلى من جاء ذكرهم فى الآية السابقة لهذه الآية :

﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

ومع ذلك فإن الله حين أشار إلى هؤلاء المستضعفين بحق قال :

﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾

(من الآية ٩٩ سورة النساء)

وكان مقتضى الكلام أن يقول الحق : « فأولئك عفا الله عنهم » ، لكن الحق جاء بـ « عسى » ليحثهم على رجاء أن يعفو الله عنهم ، والرجاء من الممكن أن يحدث أو لا يحدث . ونعرف أن « عسى » للرجاء ، وأنها تستخدم حين يأتى بعدها أمر محبوب نحب أن يقع .

فقد ترجو شيئاً من غيرك وتقول : عساك أن تفعل كذا . وقد يقول الإنسان :

عساى أن أفعل كذا ، وهنا يكون القائل هو الذى يملك الفعل وهذا أقوى قليلاً ، ولكن الإنسان قد تخونه قوته ؛ لذلك فعليه أن يقول : عسى الله أن يفعل كذا ، وفى هذا اعتماد على مطلق القوة . وإذا كان الله هو الذى يقول : « عسى الله أن يعفو عنهم » ، فهذا إطماع من كريم قادر .

وبعد أن يذكر لنا القصة التى تحدث لكل من مات وتوفته الملائكة ظالماً نفسه بأن ظل فى أرض ومكث فيها ، وكان من الممكن أن يهاجر إلى أرض إيمانية إسلامية سواها ؛ ومع ذلك فالذى يضع فى نفسه شيئاً يريد أن يحقق به قضية إيمانية فهو معانٌ عليها لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾

فالذى يهاجر فى سبيل الله سيجد السعة إن كان قد وضع فى نفسه العملية الإيمانية . وفى البداية كان المسلمون يهاجرون إلى الحبشة ؛ لأنهم لم يكونوا آمنين فى مكة على دينهم .

ولذلك قيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بسط الله له كونه واستعرض قضية العدالة فى الكون ، فلم يقبل النبى إلا أن يذهب المهاجرون إلى الحبشة . ولا بد أن الحق قد أعلمه أن الحبشة فى ذلك الزمان هى أرض بلا فتنة .

وقد يقول قائل : ولماذا لم يختر النبى أن يهاجر المهاجرون الأوائل إلى قبيلة عربية فى الجنوب أو فى الشمال ؟